

ذاتك و مديح الناس

عن كتاب انطلاق الروح

للبابا شنودة الثالث

أتريد يا أخی أن تصل الى الله ؟ أ تحب أن تردد عبارة الطوباوى بولس " لى اشتهاى أن أنطلق و أكون مع المسيح فذاك أفضل جدا " اذن فانطلق أولا من ذاتك ، من ذاتك التى تعبدها بدلا من الله و تحاول باستمرار أن تراها ممجدة معظمة أمام الآخرين .

هل يمجذك العالم يا أخی الحبيب ، و هل تقبل منه هذا التمجيد ؟ يا لك من مسكين ... أ لست تعلم أن المجد لله وحده ؟ لأنه خالق الكل و مصدر جميع الكائنات و لأنه الوحيد الواجب الوجود ، و الأزلى ، و القادر على كل شئ ، و المالى كل مكان ... أ لست تعلم اذن أنك ان مجدت ذاتك ، أو مجدك الناس فانما تسلب صفة من صفات الله . و تنسبها الى نفسك ! ! أ هى التجربة التى حاربت أباك آدم ، اذ لم يكتف بما وهبه الله من نعم ، بل أراد أن يكبر حتى يصير مثل الله ؟

و من أنت يا أخی حتى تتمجد ؟ ! هل للتراب مجد ، أو للرماد كرامة ، أو للعدم احترام و هيبة ؟ ! ثم أ لست خاطئا مثلى ، و ان كان الله قد سترك و أخفى عيوبك عن الناس فهل للخاطئ مجد ، و هل للضعيف كرامة ؟ اذن لماذا تمجد نفسك ، و أنت تعرف حقيقتك بكل ما فيها من خطايا و نقائص و عيوب ...

هل تفعل هذا لأن الناس لم يعرفوا حقيقتك بعد ، و لم يعلموا كل شئ من ماضيك ، و لم يكتشفوا كل ضعفاتك ، و لم تظهر أمامهم أخطاؤك ؟ لماذا اذن تخدعهم و أنت تعلم ؟ بل لماذا تخدع نفسك ، و الخداع لا يفيدك شيئا ؟ ؟ أ لهذا الحد تستغل ستر الله و كتمانته حالتك عن الناس ... أ توده اذن أن يعلن للآخرين أفكارك و أحاسيسك و رغباتك المكبوتة ... ! !

ثم لماذا تبحث عن مجد زائل ، لا يصحبك بعد الموت ، و لا يقف معك فى يوم الدينونة ، أمام الديان العادل ، الذى لا يتأثر فى حكمه عليك برأى الناس فيك ، لأن كل شئ مستور ، هو عريان قدامه ...

ألا يزال عزيز عندك مدح الناس ؟ أ لست تعرف أن مدحهم زائف : لأنه يكون أحيانا على سبيل المجاملة أو التشجيع أو التملق أو الخجل ، كما أنهم حتى ان صدقوا و أخلصوا فهم انما يحكمون حسب الظاهر و ليس فيهم من يقرأ فكرك ، أو يعرف نياتك ، أو يدخل الى قلبك ليفحص ما فيه ...

يا أخي الحبيب : اننى و لا شك قد أثقلت عليك بأفكار مجتمعة فهل تريد أن أقص عليك قصة ، لتكن اذن قصة نبوخذنصر (دا ٤ : ٢٩ - ٣٣) فهل تعرف كيف نسب لنفسه مجدا زائلا ؟ و هل تعرف كيف كانت نهايته ؟ اذن ليته يكون درسا لك ...

أتراك تضايقت ؟ سامح ضعفى ، و أسلوبى الخشن فى التعبير . و لكن أ هى عادتك باستمرار أن تتضايق من شخص يكلمك بصراحة ؟ لا يتملكك ، و لا يستعمل معك ألفاظ التفخيم التى يستعملها الناس ... لماذا ؟ ... الأولى بك يا أخي العزيز أن تحب هذا الأسلوب ، لأنه يوقفك أمام حقيقتك ، و ما أشد احتياجك الى الوقوف أمام هذه الحقيقة ، حتى تعرف نفسك ، تلك المعرفة اللازمة لخلاصك .

و لكن دعنا نناقش الأمر معا . لماذا تريد أن تظهر عظيما أمام الآخرين ؟ أ هو مركب النقص ؟ هل تشعر فى ذاتك أنك فى درجة صغيرة . و تريد أن تعوض ذلك بأن تكتسب مدح الناس بكافة الطرق : ان مدحوك سررت ، و ان هاجموك دافعت بحرارة عن نفسك حتى لا تظهر أمامهم معيبا ، و ان وقفوا منك محايدين لا مدح و لا مهاجمة ، لم يعجبك هذا أيضا و أخذت تتسول مدحهم بأن تحدثهم عن فضائلك حتى يعجبوا بك فيمدحوك ...

أ هذه هى الحقيقة ؟ ان كانت كذلك ، فلنحاول مناقشتها معا :
حسن يا أخي أن تشعر بأنك ناقص و خاطئ و ضعيف و أقل من الناس جميعا ، و لكن علاج هذا النقص لا يأتى باضافة نقص جديد اليه عن طريق محبة مدح الناس ، و انما يأتى بتكميل الذات و اصلاح أمرها .

لماذا يهملك رأى الناس فيك و مدحهم اياك ؟ ألعلك ستدخل ملكوت الله ان رشحك الناس لهذا ؟ ! اذن فاعلم أن كثيرا جدا من الذين يمدحهم الناس سيلقون فى البحيرة المتقدة بالنار و الكبريت ... " و ويل لكم ان قال فيكم الناس حسنا " (لو ٦ : ٢٦) .

مدح الناس يا صديقى وقتى و زائل . و هم لا يثبتون على حال . الذين هتفوا للسيد المسيح كملك . صرخوا أيضا قائلين " اصلبه اصلبه " و مدح الناس أيضا زائف لأنهم لا يعرفون الحقيقة تماما .

إليك سؤال يهمنى أن تجيب عليه اجابة صريحة : ماذا يكون شعورك عندما يمدحك الناس و انت تعرف عن خفاياك ما يخجل ؟ هل تنسى أثناء مدحهم تلك الخطايا التي لو عرفوها عنك لطرذوك خارج المجمع أم أنت تتناساها ؟ أم تعتبرها مكدرات لا يجب أن تظهر أثناء نشوتك بمديح الآخرين ؟ اذن فأنت يهملك فقط خارج الكأس ، يهملك أن تكون كالقبور المبيضة من الخارج و من الداخل نتنة ؟ ! اذن فأنت تهملك الحياة الأرضية فقط و لا تأبه للحياة الآتية . صارح نفسك يا أخى المحبوب بحقيقة مشاعرك ، و اعترف بهذا بينك و بين نفسك أولا ، ثم اسكب هذه الذات أمام أب اعترافك ، اسكبها فى بكاء و أنين و ألم مر .

و اليك ما يجب أن تشعر به عندما يمدحك الناس :

١- اشعر أولا أنك ربما تكون مرانيا ، تظهر للناس غير ما تبطن . قل لنفسك فى صراحة " اننى شخص خاطئ دنس ، و عندما أجلس الى أب اعترافى أكاد أدوب خجلا و عندما أحاسب نفسى على خطاياى تنسحق ندما و شعورا بالخسة و الحقارة ، و تصغر ذاتى أمام عينى ، و عندما أقف للصلاة أشعر أننى غير مستحق أن أرفع نظرى الى فوق ... فلماذا اذن يمدحنى الناس . ألعنى مرانى ؟ ألعنى ذو وجهين ؟ أظهر أمام الناس بشخصية ، و حقيقتى شخصية أخرى ؟ هل أنا ممثل ؟ ربما أكون

...

٢- اشعر أن مدح الناس ربما يجعلك تستوفى أجرك على الأرض فلا تنال اجرا فى السماء ، و هكذا يضيع أكليلك بثمن بخس . ان مدحك الناس فخير لك أن تحزن . احزن على اكليلك الذى يوشك أن يضيع . و هذا الحزن المقدس يصفى نفسك و يجعل روحك تنطلق بالأكثر .

٣- عند مدح الناس لك اشعر أنك ربما تكون مختلسا قد سلبت مجد الله و نسبته الى نفسك . لقد قال السيد المسيح : " لكى يروا أعمالكم الحسنة فيمجدوا أباكم الذى فى السموات " (متى ٥ : ١٦) فان كان المجد قد رجع اليك أنت بدلا من الأب ، فربما يكون هذا اختلاسا و أنت لا تدري ، أو و أنت تدري . عندما تصلى و تقول : " لأن لك الملك و القوة و المجد " أنت نفسك التى تريد أن يكون المجد لها فتنافس الله فى قوته " ليس لنا يا رب ليس لنا ، و لكن لاسمك القدوس اعط مجدا " (مز ١١٥ : ١)

...

٤- عندما يمدحك الناس انكر ذاتك ، و وجه أنظارهم الى الله ، فى غير رياء و فى غير تظاهر بالتواضع ، اذكر لهم أنك خاطئ و ضعيف ، و أن الله هو الذى فعل الأمر

الذى يستحق المديح ، و كما توجه هذا الكلام الى الآخرين ، توجه به أيضا الى نفسك و اقتنع به حتى لا تعود فتنفخ .

٥- اذا وجدت البعض قد بدأ قصة أو حديثا أو خبرا سينتهي بمدحك ، حاول أن تغير مجرى الحديث أو على الأقل لا تسر بالمدح و انسبه الى الله عن اقتناع .

٦- عندما يمدحك الناس تذكر هاتين الآيتين الجميلتين " مجدا من الناس لست أقبل " (يو ٥ : ٤١) ، " مجدنى أنت أيها الأب عند ذاتك ... " (يو ١٧ : ٥) احفظ هاتين و ردهما كثيرا فى فكرك .

٧- و عندما يمدحك الناس تذكر خطاياك ، و اترك ضميرك يؤنبك حتى يكون هناك توازن بين داخلك ، و بين مدح الناس من الخارج .

و أخيرا ، ان كان هذا هو المطلوب منك عندما يسعى اليك مدح الناس فبديهى جدا أنك لا تسعى بنفسك الى طلب هذا المديح أو استجدائه .